ذكراه قائمة سنويّاً وحضوره القويّ مستمرّ على الدوام... خاصّة في زمن الغدر والتآمر ضدّ سورية الوطن والأمّة

نزار قبّاني السبّاق إلى الرؤيا: إنّ زماننا العربيّ مختصّ بذبح الياسمين وبقتل كلّ الأنبياء

دفع نزار ثمناً غالياً لمعاركه الأدبية، فكان عرضه لمعاداة الحكام والوزراء وأولي الشأن منا، ومنعت أعماله من التداول، ومنع من تخطي الحدود بين الدول العربية، ثم كان هؤلاء الحكام والوزراء يتراجعون ويستقبلون بالود شاعر الشام، عدا دولة واحدة لم تسمح لنزار وأعماله أن يجتازا حدودها، بل أكثر من ذلك فقد اعتبرت نزاراً كافراً ملحداً وهدرت دمه منذ نطق بأول بيت شعر حتى الآن، فوقعت الواقعة بين نزار وتلك الدولة. هم يصدرون فتاوى التكفير والقتل في حقه وهو يفتح نار قصائده على جهلهم وتخلفهم وبحثهم عن ملذاتهم على حساب الوطن، حتى بعد رحيل الشاعر ما زالوا في صراع معه، صراع بين الحق والباطل.

ابتدأ نزار بكتابة الشعر طفلاً متمرداً على الجهل والجاهلين، وأعلن العصيان على التقاليد والأعراف كلّها ووقف في وجه الرياح العاتية وقال «القصيدة عندي هجمة انتحارية على القبح والانحطاط والظلام والتلوث السياسي والقومي» لذا كان مطلوباً لكل مخافر الدرك العربية «الانكشارية»، ولم تستطع السنون أن تنزله عن صهوة حصانه الجامح.

معارك أدبية وشعرية كثيرة خاضها نزار مع أنداده، وحكومات عربية عديدة رفعت «الكرت الأحمر» في وجه نزار: مخافر ودرك وجنود عرب ومرتزقة طاردوا نزاراً في المدارس والإذاعات والصحف والمجلات ووضعوا اسمه على الحدود. ونزار كان شامخاً مثل قاسيون في وجه الرياح، يحمل بين ثنايا قلبه حباً لله والوطن والإنسان، فكان يخرج من كل معركة أطول قامة وأكثر قوة.

«قالت لي السمراء» كان بداية الفتح للشاعر الدمشقي نزار قباني، والسيف الذي شهره في كل غزواته وانتصر.

أعد نزار ديوانه الأول «قالت لي السمراء» للطباعة وذهب إلى أم المعتز وقال لها لدي ديوان شعر وأريد مبلغ 300 ليرة سورية لطباعته فخلعت أسورتي الذهب من يدها وأعطتهما له ليطبع كتابة. وبعدما نشر ديوان شعره وظهرت أصداؤه في الحارة جاء وجهاؤها إلى أبي المعتز يشكون ابنه نزار على هذا الديوان ويسجلون اعتراضهم عليه وضرورة إتلافه ومنع نزار من التعاطي مع هذه الأشياء (الشعر). انتظر الوالد توفيق قباني ابنه نزاراً إلى حين عودته إلى البيت، فسأله: هل صحيح أنك كاتب كتاب شعر عن المرأة والناس في الحارة قايمين عليك؟ فقال له: بلى، وطلب أبو المعتز الديوان ليطلع عليه ثم يقرر ماذا سيفعل، وبعد أيام استدعى ابنه نزاراً وقال له: لا يهمك ما يقولونه في الحارة واستمر وأنا أتدبر الأمر مع أهل الحارة. واستمر صراعه بدمشق مع «الذقون المحشوة بغبار التاريخ»، بحسب قوله.

لم تهدأ معركته هذه فصرخ بأعلى صوته متألماً من «الذقون المحشوة بغبار التاريخ»: «ضربتني دمشق بالحجارة، والبندورة، والبيض الفاسد. العمائم نفسها التي طالبت بشنق أبي خليل طالبت بشنقي، والذقون المحشوّة بغبار التاريخ التي طلبت رأسه طلبت رأسي».

من أشرس المعارك التي خاضها نزار مع الحاقدين والمتطفلين كانت في القاهرة، وكانت كما يقول نزار مع بعض «مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها»، حسب قوله. ففي أعقاب نكسة الخامس من حزيران كتب نزار قصيدة عنوانها «هوامش على دفتر النكسة» أودعها خلاصة ألمه وتمزقه، وكشف فيها عن مناطق الوجع في جسد الأمة العربية، لاقتناعه بأن ما انتهينا إليه لا يعالج بالتواري والهرب، وإنما بالمواجهة الكاملة لعيوبنا وسيئاتنا. هذه الرؤية لم تعجب بعضهم في القاهرة وفي مقدمهم وزير الإعلام المصري آنذاك، واعتبرها موجهة إلى مصر. فأصدر قراراً بمنع نزار من دخول مصر، ومنع كتبه وأغانيه من تلفزيون مصر وإذاعتها، سطر نزار بتاريخ 30 تشرين الأول عام 1967 رسالة للرئيس المصري آنذاك جمال عبد الناصر يشكوه فيها منع قصائده في مصر! ومما جاء في الرسالة: «أوجعني يا سيادة الرئيس أن تمنع قصيدتي من دخول مصر، وأن يفرض حصار رسمي على اسمي وشعري في إذاعة الجمهورية العربية المتحدة وصحافتها. والقضية ليست قضية مصادرة قصيدة أو مصادرة شاعر. لكن القضية أعمق وأبعد. القضية هي أن نحدد موقفنا من الفكر العربي. كيف نريده؟ حراً أم نصف حر؟ شجاعاً أم جباناً؟ نبياً أم مهرجاً؟

القضية هي أن يسقط أي شاعر تحت حوافر الفكر الغوغائي لأنه تفوه بالحقيقة. سيادة الرئيس: إنني أشكو لك الموقف العدائي الذي تقفه مني السلطات الرسمية في مصر، متأثرة بأقوال بعض مرتزقة الكلمة والمتاجرين بها. وأنا لا أطلب شيئاً أكثر من سماع صوتي. فمن أبسط قواعد العدالة أن يسمح للكاتب أن يفسر ما كتبه، وللمصلوب أن يسأل عن سبب صلبه. لا أطالب يا سيادة الرئيس إلا بحرية الحوار، فأنا أشتم في مصر، ولا أحد يعرف لماذا أشتم، وأنا أطعن بوطنيتي وكرامتي لأني كتبت قصيدة، ولا أحد قرأ حرفاً من هذه القصيدة. سيدي الرئيس، لا أريد أن أصدق أن مثلك يعاقب النازف على نزيفه، والمجروح على جراحه، ويسمح باضطهاد شاعر عربي أراد أن يكون شريفاً وشجاعاً في مواجهة نفسه وأمته، فدفع ثمن صدقه وشجاعته».

وصلت الرسالة إلى الرئيس عبد الناصر، فكتب عليها فوراً، يسمح للشاعر بدخول مصر متى شاء ويرفع الحظر عن أعماله. وفي عام 1990 صدر قرار من وزارة التعليم المصرية بحذف قصيدته «عند الجدار» من مناهج الدراسة بالصف الأول الإعدادي لما تتضمنه من معان غير لائقة! بحسب زعمهم، وأثار القرار ضجة حينذاك واعترض عليه كثير من الشعراء في مصر في مقدمهم

محمد إبراهيم أبو سنة.

عام 1990 أيضاً أقام نزار دعوى قضائية ضد إحدى دور النشر الكبرى في مصر، إذ أصدرت الدار كتاب « فتافيت شاعر» متضمناً هجوماً حاداً على نزار على لسان اللبناني جهاد فاضل، وطالب نزار بـ100 ألف جنيه كتعويض وتم الصلح بعد محاولات مستميتة. وحين أقام نزار قباني فترة من الزمن في القاهرة تعرض لهجوم من بعض شعرائها وصحافييها، فها هو الكاتب الصحافي موسى صبري رئيس تحرير صحيفة «الأخبار» المصرية يوجه مجموعة من الشتائم إلى الشاعر ضمنها جملته المشهورة التي قال فيها: «عليك اللعنة يا نزار... يا قباني» وجعلها عنوان مقالته وختامها.

حين تغنى نزار قباني بدمشق وقال فيها: «السكنى في الجنة.. والسكنى في دمشق.. شيء واحد. الأولى تجري من تحتها الأنهار.. والثانية تجري من تحتها القصائد والأشعار». قالوا عنه: «زعيم الشياطين والأبالسة نزار قباني».

لذا منع نزار من دخول الأراضي السعودية، ومنعت جميع كتبه الشعرية والنثرية من دخولها، وكان القارئ السعودي يتناول هذه الكتب في الخفاء وبأسعار مرتفعة جداً، والسعودية هي البلد العربي الوحيد الذي لم يزره نزار طوال حياته!؟ ولم تدخل كتبه بشكل طبيعي إلى أسواقها! وبعد وفاة نزار قباني تطاول صالح الشايجي، الصحافي في جريدة «الأنباء» الكويتية، على قامة نزار، ونشر زاويته «بلا قناع» في 3/5/1998 وقد ملأها بالحقد والكراهية على نزار، لكنّ نزاراً كان رحل إلى جوار ربه فلم يستطع أن يرد ذاك إلى حتفه.

لم تهدأ نار حقدهم على نزار قباني، فحين رحل الشاعر إلى جوار ربه، أثير العديد من الروايات التي تناقلتها الصحف والمجلات حول منع الصلاة على جثمان الشاعر في جامع المركز الثقافي الإسلامي في لندن، وقيل يومذاك: «إن الإسلاميين المتطرفين في المسجد المركزي في لندن قد منعوا الجثمان من دخول الجامع للصلاة عليه لأنهم صنفوه على أنه كافر ولما قيل لهم: هل شققتم على قلبه؟ قالوا: لو رأيناه حياً أمامنا لشققنا قلبه وشققنا كتبه الآثمة». وقالت الصحافة يومذاك إن هذه رواية شاهد عيان حضر الصلاة وصلى على الجثمان خارج الجامع بعدما عجز المصلون عن إقناع الإسلاميين المتطرفين بالسماح بالصلاة عليه داخل الجامع». ابنة نزار قباني هدباء قالت لمدير المركز: «لو كان أبي حياً لهجاكم أيها المتشددون».

وفي المحصلة نستطيع القول إن هذا ليس جديداً على نزار قباني، فهو حين دخل مملكة الشعر دخلها فاتحاً وغازياً، وأعلن العصيان على سائر التقاليد والأعراف البالية وأضرم النار في كل العقول المتحجرة.

لم يعترف نزار قباني بقوانين المخافر الانكشارية العربية، ورقابة رقيبهم، فأعلن العصيان على التخلف والفساد والرشوة والتسلط ووقف في وجه كل المنحرفين، لعله كان الأشجع والأجرأ والأقوى في فضح هؤلاء الخبثاء وتعريتهم، فكتب القصائد الكثيرة التي تفضح ممارساتهم.

نزار قباني العروبي حمل في دمه وشرايينه الوطن بآماله وآلامه في حله وترحاله لم يستطع أن يكون شاهد زور على مآسينا فكان رده منسجماً مع رؤاه السياسية وقد أثبتت الوقائع صدق ما ذهب إليه نزار قباني وما حذر منه: «أميركا تريد أن يبقى العرب جنيناً متخلفاً عقلياً حضارياً وتقنياً وقومياً، بحيث لا يستطيعون على المدى المنظور أن يشكلوا خطراً على إستراتيجيتها النفطية ونفوذها الاقتصادي والسياسي في هذه المنطقة التي تجلس على نصف موارد الطاقة في العالم... تصورنا أن النفط سيشفع لنا لديها... ولكنها امتصت نفطنا كالعلقة واستمرت تضربنا تصورنا أن الأرصدة الضخمة التي أودعناها لديها لتشارك في دعم اقتصادها سوف تثير في نفسها مشاعر الحنان والمجاملة ولكنها احتفظت بأرصدتنا ولم تتوقف عن ضربنا...».

حكاية نزار قباني مع الذئاب حكاية طويلة، حكاية نفط وفساد، فهو رأى أن أموال النفط أتاحت لهم تفريخ وسائل إعلام ومحطات فضائية تدعم طغيانهم وطغيان عتاة الإرهابيين ومنظماتهم وتسوق أفكارهم وفتاواهم بالقتل والتخريب من دون أي مسوّغ أو وازع ديني أو أخلاقي. يقولون، لو أن العرب استخدموا النفط في مساره الصحيح لسيطروا على العالم ولكن ماذا في إمكاننا فعله، إذا كان من يسيطر عليه متخلفاً متحجراً بالكاد يستطيع أن يكون جملة مفيدة واحدة:

«من كل صوب.. يهجم الجرادْ.. ويأكل الشعر الذي نكتبه..
ويشرب المدادْ.. من كل صوبٍ.. يهجم (الإيدْزُ) على تاريخِنَا.. ويحصُدُ الأرواحَ، والأجسادْ».

ترى هل استطاع النفط وأمواله أن ينقل هؤلاء من البداوة إلى الحضارة؟ وهل أخرجتنا أموال النفط الهائلة من عقلية القطيع إلى التحضر؟ يستبعد نزار قباني أن يكون النفط بأيدي هؤلاء للحضارة، بل هو فخ وقعوا فيه وأفسدوا في الأرض وكانوا القطط السمان التي نهبت البلاد والعباد، فكان النفط لهم للملذات:

«تمرغ.. يا أمير النفط فوق وحول لذاتك
كممسحة.. تمرغ في ضلالاتك
لك البترول.. فاعصره
على قدمي خليلاتك
كهوف الليل في باريس.. قد قتلت مروءاتك
على أقدام مومسة هناك
دفنت ثاراتك..
فبعت القدس.. بعت الله.. بعت رماد أمواتك
كأن حراب إسرائيل لم تجهض شقيقاتك
ولم تهدم منازلنا»

«أيا متشقّقَ القدمينِ.. يا عبدَ انفعالاتكْ، ويا مَنْ صارت الزوجاتُ بعضاً من هواياتكْ، ويا مَن تخجلُ الصحراءُ حتّى من مناداتك، متي تَفهمْ؟ كهوفُ الليلِ في باريسَ.. تغوصُ القدسُ في دمها، وأنتَ صريعُ شهواتك»

لقد أيقن نزار قباني الشاعر الدمشقي بحسه الشعري أن أمثال هؤلاء كان من الأجدر بهم أن يبقوا كما كانوا، يلهثون وراء البعير، وجل مبتغاهم الحصول على تمرة أو قطعة خبز كما كانوا قبل وقت قريب:

«يا بلدي الطيب.. يا بلدي لو تنشف آبار البترول
ويبقى الماء
لو تلغى أجهزة التكييف من الغرف الحمراء
لو أعطى السلطة في وطني
جرّدت قياصرة الصحراء
من الأثواب الحضاريّة
ونزعت جميع خواتمهم
ومحوت طلاء أظافرهم
وسحقت الأحذية اللّماعة
والساعات الذهبيّة
وأعدت حليب النّوق لهم
وأعدت سروج الخيل لهم
وأعدت لهم حتى الأسماء العربيّة»

من وجهه نظر نزار فإن النفط العربي كان وبالاً علينا وكان في أيدي حفنة من الأشخاص والعشائر والقبائل التي استغلته للملذات والتوحش، والتخلف، والبشاعة، والوضاعة: «هجم النفط مثل ذئب علينا، فارتمينا قتلى على نعليه، وقطعنا صلاتنا.. واقتنعنا، أن مجد الغنيّ في خصيتيه، أراهم أمامي وهم يجلسون على بحر، النفط.. بلاداً تستعذب القمع.. حتى صار عقل الإنسان في قدميه... إن اللص أصبح يرتدي ثوب المقاتل، ندخل مرةً أخرى لعصر الجاهلية، ها نحن ندخل في التوحش، والتخلف.. والبشاعة.. والوضاعة».

اختصر نزار منذ عشرات السنين واقعنا وتحدث منذ ذلك الوقت عن حالنا اليوم: «إن زماننا العربيّ مختصٌ بذبح الياسمين، وبقتل كل الأنبياء.. وقتل كل المرسلين.. ها نحن ندخل في التوحش.. والتخلف.. والبشاعة.. والوضاعة.. ندخل مرةً أخرى.. عصور البربرية.. إن اللص أصبح يرتدي ثوب المقاتل.. ندخل مرةً أخرى لعصر الجاهلية.. ها نحن ندخل في التوحش.. والتخلف.. والبشاعة.. والوضاعة.. ندخل مرةً أخرى.. عصور البربرية».

الخبر الثقافي

ندوة حول ترجمة النصّ المسرحيّ

بحثت الندوة الأدبية التي أقامتها جمعية الترجمة، بالتعاون مع جمعية المسرح في اتحاد الكتاب العرب، تحت عنوان «ترجمة النص المسرحي واقع وآفاق»، أهمية ترجمة النصوص المسرحية في نشر الثقافة والمراحل التاريخية التي مرت بها هذه الترجمة على مستوى العالم العربي وسورية بخاصة.

مقرر جمعية الترجمة حسام الدين خضور أوضح أن الندوة تسلط الضوء على أسس الترجمة وكيفية التعامل معها ونقلها للغة المحلية وأهمية الوسائل المتبعة في نقلها لكونها تنشئ تفاعلاً بين المسرح والجمهور، مؤكداً على أن ترجمة النصوص المسرحية ينبغي أن تأخذ في الاعتبار خصائص هذا الفن لتتمكن من المثاقفة.

الدكتور توفيق المديني رأى من ناحيته أن ترجمة المسرح تخدم جانباً مهمّاً من النشاط الثقافي إذ يتمتع بمقومات اجتماعية مفيدة، داعياً إلى نقل النصوص المترجمة إلى اللهجة المحلية بدلاً من الفصحى لكونها أقرب إلى الجمهور.

الدكتور نبيل الحفار اعتبر المسرح جسراً رئيسياً لنقل الثقافة بين المجتمعات والشعوب، ما يضفي أهمية إضافية على ترجمة النص المسرحي، علماً أنه يعتمد على المشاهدة التي قد تكون أقدر من القراءة في الوصول إلى المتلقي. وعرض الحفار لبدايات المسرح العربي على يد اللبناني مارون النقاش الذي شاهد عروض المسرح الغنائي في روما وباريس وعاد متأثراً بهذا النوع من الفن الجديد فقدم على شاكلته نصوصاً عربية لجأ فيها إلى التراث العربي مثل «ألف ليلة وليلة»، فالوصول إلى النصوص المسرحة المطبوعة لم يكن متاحاً. ثم بدأ المسرح يتطور على يد أبي خليل القباني خلال عمله على نشر المسرح في سورية ومصر.

المترجم جوان جان أشار إلى أن المسرح المترجم يساهم في معرفة المنطقة التي يمثلها وبيئتها وتداعياتها عبر الفكرة المسرحية المطروحة ومعانيها.ولفتت الباحثة المترجمة نورا أريسيان إلى أنها ترجمت المسرح الأرميني إلى العربية بعدما اطلعت على الأدبين العربي والأرميني ووجدت تقارباً شديداً بينهما إذ يشكلان علامة مميزة في الآداب الشرقية. وأشارت إلى أن ترجمة الأجناس الأدبية إلى اللغة العربية حاجة وضرورة وتساهم في إغناء الحالة الثقافية والأدبية العربية، لافتة إلى أن بداية ترجمة المسرح للغة العربية تعود إلى نهاية القرن 19 إثر رواج المسرح الساخر.

فيلم «الرجل الذي صنع فيلماً» في مهرجانين دوليّين

يشارك الفيلم السوري القصير «الرجل الذي صنع فيلماً» في مهرجانين سينمائيين دوليين، الأول «مهرجان مكناس الدولي لسينما الشباب» في المغرب والذي وتقام الرابعة بين 22 و25 أيار الجاري تحت شعار «السينما وحقوق الإنسان»،

والثاني «مهرجان «غوينيت سنتر» السينمائي الدولي» الذي يقام بين 1 و3 آب في مدينة دولوث، ولاية جورجيا، في الولايات المتحدة. ويتناول الفيلم الذي أخرجه أحمد إبراهيم أحمد عن سيناريو علي وجيه، إنتاج المؤسسة العامة للسينما، الأزمة التي تشهدها سورية وتأثيرها في الأجيال.

سبق أن شارك الفيلم ونافس في «مهرجان غرين باي السينمائي الدولي» في الولايات المتحدة الذي أقيم في شباط الفائت، وفي المسابقة الرسمية لـ«مهرجان طيبة للأفلام القصيرة» في مصر في دورته الأولى بين 26 و 29 نيسان الفائت، إضافة إلى مشاركته في «مهرجان سوس الدولي للأفلام القصيرة» في إيت ملول في المغرب ضمن المسابقة الرسمية بين 8 و11 أيار الجاري.

تمثيل جهاد سعد، نادين تحسين بيك، محمد الأحمد، ناصر مرقبي، يامن الحجلي، أكرم تلاوي، وسيم قزق، عهد ديب، رنا كرم، مي مرهج، وئام إسماعيل وآخرين.

أميركا تغرّم كاتبة بلجيكيّة لاختلاقها رواية حياتها!

أصدرت محكمة أميركية حكماً على بلجيكية مقيمة في الولايات المتحدة بدفع 22.5 مليون دولار لدار نشر أميركية تولت نشر رواية لها لاقت رواجاً كبيراً على أساس أنها من الناجين من محرقة اليهود في الحرب العالمية الثانية، ثم تبيّن أنها قصة مختلقة. ونالت ميشا ديفونسيكا شهرة واسعة مع كتابها «سيرفايفنغ ويذ وولفز» (النجاة مع الذئاب) الذي صدر في 1997 ويروي حكاية فرارها المفترض أثناء طفولتها في خلال محرقة اليهود واجتيازها آلاف الكيلومترات سيراً على الأقدام بمساعدة ذئاب، في رحلة مشقات طويلة قتلت خلالها جندياً ألمانياً ضالعاً في جريمة اغتصاب خلال الحرب العالمية الثانية.

بعد مسار قضائي استمر خمسة عشر عاماً، قررت محكمة الاستئناف في ماساتشوستس، شمال شرق الولايات المتحدة، حيث تقيم الكاتبة، في 29 نيسان الفائت إبطال مفاعيل حكم بإدانة دار نشر «ماونت إيفي» الأميركية التي تعاملت معها، بدفع 22.5 كليون دولار تعويضاً عن عمليات اختلاس متعددة.

في لحظة النشر، كانت دار النشر تعتقد أن الرواية حقيقية، وانتظرت هذه الدار إلى ما بعد إدانتها للبدء في تحقيق اكتشفت خلاله أن الكاتبة، واسمها الحقيقي مونيكا دي وايل، ليست يهودية بل كاثوليكية ومولودة في 12 أيار في إيتيربيك، بلجيكا، وتلقت معموديتها بعد أسبوع من ولادتها، ولم تغادر منزلها خلال الحرب. وسرعان ما تحولت رواية «النجاة مع الذئاب» التي كتبت بداية بالإنكليزية عبر الاستعانة بكاتب محترف، إلى إحدى أكثر الروايات مبيعاً في العالم وترجمت إلى عشرين لغة وانتقلت إلى الشاشة الكبيرة مع فيلم حمل العنوان نفسه في 2007. وفي 2008 أقرت ديفونسيكا بأن الرواية مختلقة بالكامل. وبدأت مسيرتها القضائية الحافلة مع حكم بإدانة الناشر والمسؤول عنه لمصلحة ديفونسيكا وكاتبة روايتها فيرا لي، بدفع 7.5 مليون و3.3 مليون دولار على التوالي. ثم رفعت قيمة التعويض ثلاثة أضعاف لتصبح 22.5 و9.99 مليون دولار. إلاّ أن دار النشر قامت بهجوم مضاد بعد اكتشافها كذب الكاتبة، وخسرت الدعوى في طعن قدمته في محكمة البداية ثم فازت. كذلك تقدمت ديفونسيكا بطعن حتى صدر الحكم في محكمة الاستئناف في 29 نيسان الفائت.

طِفلٌ من حَلَب سَاهَمَ في قَتلِهِ كُلّ العَرَب...

نَغَم نصر

تَوَقّف هُنيهة انصت لقصّتي اسمَع غصّتي اصغِ إليَّ...
وَجَعي يا سيّدي قد بَاتَ كَبير
لَستُ في رَيعانِ الشّبابِ وَلا رضيعٌ... أنا مُجرّد طفلٍ صغير
والدي ليسَ وزيرٌ ولا أمير
مُجرّد فلّاحٍ فَقير
يَكدح طوال اليوم في أرض... صاحبُها تاجرٌ كبير
يعودُ آخرَ اليومَ إلى البَيتِ... يُنهي عَمله في هَزيعٍ مِنَ اللّيل أخير
تَجِدُهُ مُبتسما فاغرَ الفاه رُغمَ ألَم يُمَزّقُ مَفاصلَهُ فَحملُ المعوَل طُولَ النّهار عَمَلٌ مُضنٍ ثَقيلٌ يرجعُ للبيتِ في حَالٍ للشّفَقَةِ مُثير
يَتَناوَلُ بضع لُقيماتٍ... يَكسرهُ النُعاسُ.... ها قد غطّ في سُباته ...قد عَلا صَوتُ الشّخير
أُمّي تَعملُ في مشغَلٍ للخياطة ، تُطرّزُ الملابسَ طيلةَ الشّهر لتحيكَ ثوباً أو مِعطفاً مِن فروٍ تتداخَلَ في ثناياه خُيوطٌ من حَرير
تبيعُهُ لسيدَة أعمال ترتديه ليلة ثمّ تَرميهِ في دُولابها إلى جَانبِ الآلاف من الفَساتينِ والتّنانير
نأكلُ بثمنِ الثّوب طيلةَ الشّهر... «كَفا المَبلغُ أمْ لم يَكفِنَا»... فَهَذا واقعٌ مفروضٌ عَلينا... مَرير
تَعودُ أُمّي مساءً من عَمَلٍ إلى عَمَل!... تُكمِلُ حِياكَةَ المعطَف... تُعلّمُنا... وتَصنعُ لَنا الفطير
تَجدُهَا أَمَامَ النّاسِ وَاثِقة بنَفسها... طيّبة الخُلق... شريفَة نَظيفة... تظنُّهَا غَنيّةً مَن شِدّةِ التّعفّف (القَناعة ..التّسليمُ والرّضا) قَولُها الشّهير
فطورُنا حَليبٌ وخُبزٌ مصنوعٌ من طَحينِ الشّعير
غدَاؤنا فُولٌ... أو بُرغُلٌ... وفي أحسَنِ الأَحوال سكبَةٌ من جَارَتنا أُمّ وائِل... الّتي تَأتينا بالطّعامِ الوَفير
عند العشاءِ... نَجمَعُ ما تبقّى من فُتات يومنا... وَنأكُلُ بضعَ لُقيمات يُقمنَ صُلبنَا... واهِمينَ أَنفُسَنَا بالشّبَع... إنَّ الأوهامَ عشاءُ الفَقير
جَدّي والدُ أُمي يُقيمُ مَعنَا، أُحبُهُ كثيراً رُغمَ أنّهُ يُنهكُني طُولَ اليوم بِطلبَاتِه، ولَكنّني مَسؤولٌ عنهُ... فَجَدّي يا سادة ضَرير
يَقدُّ وَجهُهُ نوراً... صَحيحٌ أنّ عيناهُ الزّرقاوين تَفتَقِدانِ الضّياء ولكنّهُما تَحكيانِ الكثير
يوميّاً يَروي أَمتَعَ القَصَص... غَريبَةٌ عَجيبَةٌ لا تَمتُّ للكَون بصِلةٍ... أَحداثُهَا لَم تُشاهِدها في فِيلم «أكشن» ولَن تَسمَعُهَا عَبرَ الأثير
جَدّي مُصابٌ بالزّهايمر خَيالُهُ خصبٌ كُلّ دقيقة يُناديني باسم... دَقيقَةٌ عامر وَدَقيقَةٌ سَمير! انصتوا هَا هُوَ يُناديني : يا مُنير
عندَ الغداء لا نَجرُؤ على إشعال التلفاز فلن يَسمَحَ لَنا جَدّي بالأكل سَيقول : اعزمُوا السّيدَ المُذيع آتوني بِهِ أَخرِجُوهُ مِنَ الأثير!
سَنَنتظرُه حتّى يُنهي نَشرةَ الأخبار ثُم نَعزِمُهُ ليتعشّى معنا! وهل الطّعام من أمامنا سوف يَطير؟
وإن سَرَقَ أحدُنا لُقمةً يا وَيلهُ... وَيلٌ له وَبئسَ المَصير
لِيَبدأ مُحاضرَتَهُ عن الأخلاقِ... المُثُل... والكَرَم ثُمّ يختَتِمُ ندوتَه العظيمة! لِيقول: مَا أقلّ ذوقكُم... أينَ العادات أين هو الضّمير
رفيقُهُ الدّائم حَضرتي إن خَرَجَ بمفرده لَن يَعُود سَينسَى الطَّريقِ ياحسرتي في العُطلةِ نخرج لا نَعودُ إلا حينَ تُمطِرُ مَطراً غزير
نَركُضُ من شدّةِ البَردِ يَتَعَثّرُ جَدّي... يقعُ... نَضحَك... يركلُني يقولُ لي: وَيحَكَ انتظرني يا مُغفل أتظنُّني مثلكَ بَصير؟
البَردُ في مَنزلنا لا يقلُّ قرساً عن الخارج... لا نَنامُ عادةً إلا عندَ تَجمُّدِ الدّم في أطرافنا... يا لَهُ منَ برد! وأيُّ بردٍ؟ إنّهُ الزّمهرير
لا إخوةَ لي أبوايَ بالكاد يُطعمَاني وهل يَستجلبانِ لأنفسهما همّاً ثاني؟ ننامُ نفترشُ الأرضَ... نومُ الفقيرِ فوقَ السّرير أمرٌ مَرير!
مَا يُعزّي قُلوبَنا : أنّ الأغنياءَ حتّى لو ناموا على ريشٍ أو حرير... فإنّ الأحلامَ مُنصفةٌ لا تُفرّقُ بينَ أميرٍ أو فقير
سَعيدٌ أنا... فَخُورٌ بوالديَّ... فَهُما لَيسَا مُجرّدَ أبوَينِ عَاديّين بل يُساويان عندي الكَثير
كَثيراً ما تَشتَهي نَفسي... فَأنا طفلٌ... لا أستَطيعُ التّحكُّمَ بنَفسي ولا كَبحَ جِمَاحِهَا كما يَفعَلُ الإنسَانُ الكَبير
حرمَانُ الطّفولَة لا يُضاهيه حرمَان، يَتَشبّثُ بالذّاكرة صَعبُ المحوِ يَكسرُ الرّوحَ فلا تُرمّمُهَا مَراهمٌ ولا قَناطيرٌ من دَنانير
كانَ والدي يُردّدُ دوماً مَقولةً شَهيرة: «لو كان الفقرُ رَجُلاً لقتلتُه»...الحِرمَانُ مع الجوع شعُورٌ كافرٌ حَقير
أشتَهي... مَلابس... ألعَاب... أطعمة... ولكن أُمّني النّفْس بغدٍ أفضل!... أتَذكّر فَقرنا المُدقعَ المَرير
ثُمّ أقولُ: يا أهبَل حتّى لو حَصَلتَ عَلى الأطايب... فَلَن تَهضمَهَا أمعَائك تلكَ حكرٌ على الأغنياءِ وهل مَعدَةُ الغنيّ كمَعدَة الفقير؟
حتّى بالمَعدة هُناك فرق؟ أمعاؤنا مبرمجةٌ على نوعٍ معيّن؟ وبُطونهم تتّسعُ للمواعين وإن شبعوا يتحلَّونَ بالعسلِ والعَصير!
نَركُضُ طُولَ النّهار لنُحَصّلَ كفافَ يومنا والأغنياء يركضون لِيهضّموا ما تناولوه من أطايب ومَا ضجّت به الأوانِي و القوارير
أحلمُ بدرّاجةِ كابنِ جيراننَا وأقول: هَذه لَيست لأمثالي أتذكّرُ تَعَبَ والدي وجُيُوبهُ الفارغَة... أكرَهُ نَفسِي وأتمتمُ : كم أنا شرّير!
لم أعُد أُريدُهَا لا يحقُّ لي أن أحلمَ بمثلها، حتّى لو حَصلتُ عليها سَتحمِلُني فهَل والدي على حَملِها قَدير؟ ثَمَنُهَا آلافٌ مِنَ الدّنانير.
(......)......!!!...........
....»......»......!!........
..........!!.........،........؟
الآنَ يا سادَة انتهى الفَصلُ الأجمل ولا الأروَع مِن روَايَتي!
فكلُّ ما ذَكرتُهُ لكُم لا يُمثّلُ إلا الجَانبَ البَهيجَ... إنه لَجَميلٌ في حكَايَتي!
اليوم أُسدلت السّتارَةُ عن أجمَلِ فُصُولِ حيَاتي
هُنا بَدَأتْ مَأسَاتي... ألمي... وَجَعي... مُعَانَاتي
مُشتاقٌ أنا... موجُوعٌ... مُتَصدّعُ القلب... ألا تَسمَعُ أنيني... نَواحي... شَجبي وحَشرجاتي؟
اشتَقتُ لأبي... لِخُبزِ أُمّي... لحِكاياتِ جَدّي
.....................؟
.....................؟
.......؟؟؟؟
أَمُصرٌّ أنتَ على سُؤالِك؟
أنتَ يا من تَسأل... وتُريدُ أن تعلَم... ولكنّي لا أنصَحُك!
هدّئ من رَوعِكَ... سَأخبِرُك... مع أنّني لا أعرفُ قُدرَةَ تحمُّلك
رُغمَ أنّي لا أعلَمُ تَحديداً أينَ باتَت رُفاةُ أجسادهم لَكن أعرفُ مَكانَ أرواحِهِم ومُطمئنٌ أنّها بِمكانٍ عُلويّ لا يَطالُهُ إنسٌ ولا جنّي
مَاتت أمّي قَهراً على أبي... الذي كانَ يُدافعُ عَنّا... عَنّي ..عَنكَ وعن أمّي... وعن جدّي
أبي البَطل تَطوّعَ في حمص... حَارَبَ في حَماه... فاستُشهِدَ في حَلَب اسمُهُ يُشرّفُني يَرفعُني نَحوَ المجدِ يُعلّيني
لا تَبكِ يا مَن تَسمَع ولا تَتأثر فأنَا عن نَفسي...من هَولِ الألَم تخدّرتُ... وَصلتُ لمَرحَلةٍ لا شيءَ يُضحكُني ولا شيءَ يُبكيني!
في هَذه اللحظة بالتّحديد نَسيتُ أَهلي... «الجُوعُ كافرٌ يا أبي»... ها قد نَسيتُكَ يا أبَتي الغَالي
حتّى أُمّي وأثوابُها الحريريّة المقصّبة... مَعاطفُها وعَطفُهَا... رَائحَةُ خُبزهَا لَم تَعُد على بَالي
جَدّي لا يَزَالُ حَي... لكن لا أعلمُ في أيّ أرضٍ هوَ، اشتَقتُ لَهُ لحكاياته... صَوته يَصدَحُ في أُذنيّ يناديني : يا سَمير يا مُنير... ثمّ يختمُها أينَ أنتَ يا وينسى اسمي نهائياً!
اشتقتُ لساعةِ الغَدَاء أتَذكُّرُكَ يا جدّي عندما كُنتَ تُلحُّ بعزيمَتكَ على مُذيعِ نَشرَةِ الأخبار في التّلفاز!
اشتَقتُ لأوقاتي مَعَك... النُّزُهَات... الحِكايات... رَكلاتُكَ لِي عندَ العَثَرَات...
فتَتَعالى الضّحكات... تَتَسارعُ الدّقات... يا آآآه كانَت أحلَى الأوقات
هَاكَ اللّحظاتُ الجّميلة نعتنَاها حينَها بالمَريرَة...آخرُما كُنتُ أتوقّعهُ يا جدّي أن تكونَ تلكَ الأيّام البَشِعَة من أجمَل أيّام حياتي يا حبيبي... آه وألفُ آه... غريبَةٌ هي الحياة كيف تتلاعَبُ بدنَاءة تُغيّرُ لحظات عشنَاهَا ولم نَكترث لعُمق يَكتَنف تفاصيلَها... لتقفزَ بعدَ سنين... عائدَةً فتَهزَأ وَتَشمَتَ بِنا... عادَت تُذكّرنا بدنَاءةٍ وخبثٍ تَذكّرُنا بلحظاتٍ جميلة سرقنَاها يوماً من صفَحاتِ العُمر... تَنبُشَ أَفراحاً قد دفنّاها وقَفّلنا القَبور بإحكام!... «الأفرَاحُ لا تُناسبُ الفُقراء»... لأنّ وجَعَها قَاتل!
الفَرح... المَعدَة... الدّنيا... المرَاتب... كلّ شيءٍ فيه تفرقَة... حتّى الأحلام خَذَلتني
كُنتُ أظنّها عادلة... حتى لو نمت على الأرضِ... لا تُميّز بين غنّي أو فَقير
اليوم خانَتني الأحلام أيضاً... قَتلَتني... دمّرَتني...
لم أعُد أستطيعُ النّوم وهل ينامُ الميّت... آه تذكّرت فأنا لَستُ بميّت... أنا «ميت تقمّص جسد حيّ»
إن غَفلتُ أقولُ عند استيقَاظي : ها قَد خانَتني الأحلامُ مُجدداً يا لَيتَني كنتُ متُ لا فقتُ ولا من نَومي نهضت
... فحين تَأتي لحظَةُ النَّوحِ والأنين نُقتَلُ إذا تذكّرنا لحظَات من فرح وحنِين
جَدِّي أتسمَعُني؟ أنتَ كَبيرٌ... ناهزتَ الخامسَةَ والتِّسعين... هَرمتَ وخرّفت...أمّا أنا ابنُ الخمسة أعوام أكبَرُ منكَ يا جدّي!
ضعنا كلانَا يا جدّي... ضعتُ أنا وتيتّمت... وأنت أيضاً ضِعتَ وتُهت... الآن مُستَحيلٌ أن تعرفَ طريقَ العودة... كيفَ تعودُ وأنا بعيدٌ عنكَ لن نلتَقي بعدَ الآن... حتّى لو التَقينَا ما الفَائدة؟
إلى أينَ سَنعود ... أَنت أيضاً لَم أَعُد أُعْنَى لأمرك ...أو بالأحرى لا أخَافُ عليك بل أحسدُك !
للمرَّة الأولى أحسدكَ يا جدّي.... لأنّكَ خَرِفٌ لا تَذكُر أيّ شيئاً
فنسيانُ الحَيِّ صَعبٌ وكَيفَ إذا كانَ ميّتاً... بالنِّسبةِ التي جمعتهما معاً «أنا مَيتٌ في جسدِ حَي»!
أحسدُك يا جدّي لأنّك ضرير... لن ترى حَجم الدّمار الذي أراه حولي... بَيتُنَا امتزَجَ مع بيتِ جارتنَا أُمِّ وائل... من اليوم فصاعداً لن تأتينا بسكبة الغداء! أحسدُكَ يا جدّي لن ترى الجثَث التي أقفزُ من فوقها
البارحة كانَ حُلُمي درّاجة... اليوم لا أريدُ شيئاً... فكنوزُ الدّنيا وأهلها... لم تَعُد تَكفيني...
ولا عَنْ مَن رَحلوا دَرّاجات العالم تُغنيني!
اليوم تبدّلَ حُلُمي فأنا رجلٌ هَرِمٌ عمري خمسَةُ أعوام!...
ما رأيُك أن أُقايضَكَ يا سيّدي البَائع؟ أنَبدأُ البَازَار؟
أُريدُ معطَفاً حريرياً لأتدَفأ أُريدُهُ من حيَاكَةِ ورَائحَةِ أُمّي... وقصّةً كقصَص جَدّي... وحِذاءَ والِدي الّذي استُشهدَ في حَلَبْ
أُريدُ حِذاءَ أبَتي... أَعطني إيّاه وخُذ عِوَضاً عَنهُ كُلَّ العَرَبْ...